البناء الأُول فــي ليبيا القديمة من منظورٍ إســـلامي ـ مقاربةٌ جديدةٌ

د. يوسف خليفة النّـاكـوع ـ قسـم الآثار ـ كلية السياحة والآثار.
جامعة صبراتة .

الملخّـــص :

تشـــــير أغلب كتابات المستشرقين الأجانب إلى قيام العـــرب الفاتحين بتدمير آثار الأمم السابقة فحاولت أن أفنّد ذاك الادّعاء باستخدام النص الإسلامي اللاحق لتلك الفترة القديمة متسائلاً عن الدور الذي يمكن أن تلعبه الاستغرافيا العربية المتمثلة في المصنفاتِ الوسيطيةِ في إماطةِ اللثامِ عن بعض الغموض الذي ســاد المرحلة الانتقالية بين العصرين (القديم ــ والوسيط) ؟ تلك المرحلة التي شهدتْ تغــيّراتٍ كبيرةٍ على كافةِ المستوياتِ (عقائديةٍ كانت أم اجتماعيةٍ، وحتى الثقافية)، فأعمال التخريبِ التي قام بها المسلمون لم تكن تنســـجم مع مبادي الدين الإسلامي كما يســـوّق بعضهم ، بل هـــي ــ على ما يبدو ــ ظاهـــرة تفكيك بدأت منذ ما قُبيل الإسلام (في نهايةِ العصرِ البيزنطي) سبقتها أحداثٍ مروعةٍ عصف بالمنطقةِ ، واستمرت طيلة العصر الإسلامي ، إما لغرضِ العيشِ خارج أســوار المدن في القُرى الريفية، للعمل في الزراعةِ هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أُخــرى هي ظاهرة طبيعية أكّدها ابن خلدون بربطهِ لزوالِ المدنِ بزوالِ الدّولِ مع بعض الاستثناءات بطبيعة الحال.

إن إشراك المعطياتِ العربيةِ الوسيطيةِ لفهم حقيقة وأسباب زوال المدنِ التاريخيةِ القديمة ، وهجرُها قبل كل شيء ــ خصوصاً إذا ما سلمنا بأن تلك المعطيات هي بمثابةِ الشاهدِ الأخير على تلك الوقائع ــ هو أمــرٌ يستحق النظر فيهِ ، بكلِ تجردٍ وموضوعية، وحتى نُظهرَ دراساتٍ معمقةٍ تبحث في الصيرورةِ التاريخيةِ للمنطقةِ والشواهدِ الأثريةِ بها، لابد من إقحامِ المصادرِ العربيةِ في العصرِ الإسلامي كمصدرٍ مكملٍ للمصادرِ الكلاسيكيةِ، والأركيولوجيةِ، ولا يجب علينا التسليم بالفكرةِ القائلـــةِ : "أن المعطيات العربية الوسيطية ، لا تصلح لكتابة التاريخ الليبي القديم "، بحجة أن تلك الكتابات لم تُعر اهتماماً كبيراً لتدوين ما قد يكون متداولاً آنذاك ، من أساطيرٍ وشواهدٍ ارتبطت أحداثها بفترةِ ما قبل الإسلام ، بحجة تعاملها مع ذَاكَ التراث المادي والأســـطوري القديم، (كتراثٍ جاهليٍ) جبه الإسلام.

المقدمـــــــة :

إن الاتجاه العام الذي واكب حركة التأليف والنشر لدى الكثير من المستشرقين، والمهتمين بالحقلِ التاريخي لا سيما القديم منـــه والمتعلق بالمنطقةِ المغاربيةِ بشكلٍ عامٍ وليبيا على وجه الخصوص ، هو الاتهام المباشر للعرب المسلمين بخراب آثار الأمم السابقة ، بحجة العقيدة المبنية على بطلانه لما يمثله من إرثٍ سابقٍ للعصرِ الإسلاميِ وتراثٍ جاهليٍ لا فائدة من بقائهِ.

وتأسيساً على ما سبق فإن التحولات الجديدة على المستوى العقائدي كانت سبباً في تجاهُلِ الماضي أكثر مما هو جهلٌ بهِ انطلاقاً من الحديثِ الشريفِ " بأن الإسلام يجبُ ما قبلهُ "، مما يفترض وفقاً لهذا الرأي نسيان الماضي وعدم الرجوع إليهِ ، وهو تأويلٌ لا يتوافق مع الحديث الشريف الذي يشيرُ إلي النظامِ في محتواهِ الدينيِ في المقامِ الأولِ، وليس إلي التراثِ الذي بقيت معالم كثيرة منهُ متصلة بالإسلامِ بدءاً بمكة المكرمة([1]).

من الثابتِ أن أولى الإشارات الواردة في الكتابات العربية ، والمتعلقة بالآثار القديمة في ليبيا كانت بعد الفتح الإسلامي ، فقبل ذلك لم يكن للعربِ أيُ درايةٍ بالشواهدِ الأثريةِ في المنطقةِ ، لكن ما أن شُوهِدتْ تلك المعالم حتى بدأت الإشارات تتوالى تباعاً، فنـــوَهـــوا ـ بين صفحات ما وضعوا من مصنفاتٍ تاريخيةٍ وجغرافيةٍ ، ومعاجمٍ ورحلاتٍ ـ لما تزخر بهِ البلاد مِنْ معالمٍ تاريخيةٍ وأثريةٍ تعود بتاريخها لأُممٍ قد خلت، فمنها ما هَجرهُ ساكنِيهِ قبل الفتح ، ومنها ما كان الفتح سبباً في هَجْرِهِ . ربما إن المعطيات التي تعود بتاريخها للفترةِ العربيةِ الوسيطيةِ([2])، تحدثت عن المدن في ليبيا القديمة ـ في سياقِ تتبعها لبداياتِ الفتح، أو من خلالِ ما دوّنهُ الجغرافيون والرحالة من مشاهداتٍ بعد زمن الفتح ــ وصَفت عدداً منها بالمدنِ: (الأزليةِ والقديمةِ، و- أيضاً - الخَراب، والخِربة)، وكثيراً ما نسبوا بِناءُها للأُول ، بضمِ الهمزةِ، وكأني بهم قد عجزوا على معرفةِ بُناتُها، فقالوا هي من بناءِ الأُول والأَولين، ومن ذلِك حديث الحميري([3]) عن مدينة غدامس الواقعة في الجنوبِ الغربي من ليبيا بقولـــهِ : "غدامس في الصحراءِ على سبعةِ أيامٍ من جبلِ نفوسة ، وهي مدينة لطيفة قديمة أزلية، إليها يُنسب الجلد الغدامسي ، وبها دواميس وكهوف كانت سجوناً للملكة الكاهنـــة ، التي كانت بإفريقيةِ، وهذه الكهوف كانت من بناءِ الأَولين وفيها غرائب من البناءِ والآزاجِ ([4]) المعقود تحت الأرض يُحار الناضـــر فيها إذا تأملها ، تبيّن أنها آثار ملوكٍ سالفةٍ ، وأممٍ دارسةٍ، وأن تلك الأرض لم تكن صحراء وأنها كانت خصيبة عامـــرة([5])".

إن عدم إشراك المعطيات العربية الوسيطية لفهم حقيقة وأسباب زوال المدن التاريخية القديمة ، وهجرُها قبل كل شيء ـ خصوصاً إذا ما سلمنا بأن تلك المعطيات هي بمثابة الشاهد الأخير على تلك الوقائع ـ هو ما دفعنا إلي البحث في هذا الموضوع بكلِ تجردٍ وموضوعية، على أملِ الوصولِ إلي إجاباتٍ مقنعةٍ لبعضِ التساؤلات التي من بينها:

ــ هل يمكن إظهار دراساتٍ معمقةٍ تبحث في الصيرورةِ التاريخيةِ للمنطقةِ والشواهدِ الأثريةِ بها، نُقحم من خلالها المصادر العربية في العصرِ الإسلامي كمصدرٍ مكملٍ للمصادرِ الكلاسيكيةِ، والأركولوجيةِ، أم أنه يجب علينا التسليم بالفكرةِ القائلةِ: "أن المعطيات العربية الوسيطية، لا تصلح لكتابة التاريخ الليبي القديم"، بحجة أن تلك الكتابات لم تُعر اهتماماً كبيراً لتدوين ما قد يكون متداولاً آنذاك، من أساطيرٍ وشواهدٍ ارتبطت أحداثها بفترةٍ ما قبل الإسلام، إذ تم التعامل مع ذَاكَ التراث المادي والأسطوري القديم، (كتراثٍ جاهليٍ)؟

ـ كيف تعامل المسلمون مع الشواهد والآثار التي قد تحملُ دلالاتٍ ورموزٍ تُجسدُ ثقافة ما قبل الإسلام؟

ـ كيف كُتب تاريخ ليبيا القديم إذاً، وكيف يُكتب؟ لماذا لا نعيد صياغة التاريخ الليبي القديم وفق مقارباتٍ جديدةٍ نقحم من خلالها المصادر العربية الوسيطية؟

ـ ما مدى الاستفادة التي سيجنيها المؤرخون وعلما الآثار من النصوصِ العربيةِ للفترةِ القروسطيةِ([6]) ، التي تحمل إشاراتٍ تُعنى بالشواهد الأثرية في ليبيا ؟

ـ إلي أي حدٍ يمكن للمعطياتِ العربيةِ في الفترةِ القروسطيةِ ، أن تُشكِل حضوراً في المؤلفاتِ الحديثةِ الراميةِ إلي دراسةِ المدنِ التاريخيةِ القديمةِ، خصوصاً في مرحلةِ الجمودِ ثم الاندثار ؟

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في كونهِ يبحثُ في أسبابِ الاندثارِ والخرابِ الذي حل بالمدنِ التاريخيةِ القديمة في ليبيا والتي يعود معظمها إلي العصرِ الكلاسيكي، بالاعتمادِ على النصوصِ العربيةِ في الفترةِ الوسيطيةِ.

وعليهِ فإنهُ من بينِ أهداف البحث:

1ـ تصحيح الفكرة السائدة لدى جمهور الباحثين، وخاصةً ، عند الفرنسي جوتيه([7]) (Gautier)، الرامية إلي أن الفتح الإسلامي للمنطقةِ لم يكن الأصل فقط في تلك (القطيعة) التي عرفتها الصيرورة التاريخية للمنطقة المغاربية برمتها ، بل كان ـ أيضا ـ سبباً في وقفِ عجلةِ التطور التاريخي بها ، والذي ينسجم مع ما ذكرته مابل لومس تود في

كتابها (أســـرار طرابلس)، حين ذكرت نصاً ـ وهي تدعي خراباً حل بالمدنِ التاريخيةِ في ليبيا إثر الفتح الإسلامي للمنطقةِ ـ جاء فيهِ: " انتقلت من روما إلي المسلمين من إقامةِ الأعمالِ الفنيةِ العظيمة إلي ضربِ أعناقِ التماثيل وإلقائها على الأرض [...] عندما اندفع المسلمون ودينهم في زحفهم مثل إعصارٍ، من مكة والمدينة على طولِ الشاطئِ الإفريقي، طامسين كل آثار المسيحية في تقدمهم الذي لا يقاوم([8]) . ".

2ـ التأكيد المُلحّ على أهميةِ النصوصِ والإشاراتِ الواردة في المصنفاتِ العربيةِ بالفترةِ القروسطيةِ، في إعادةِ كتابة تاريخ المنطقة المغاربية بصفةٍ عامة ، وليبيا على وجهِ الخصوص، بمعنى أكثر وضوحاً كتابة جوانب من تاريخِ ليبيا القديم، (وهو فترة ماضيـــــة)، من خلالِ المصادر العربية الوسيطية، (وهي نصوص لفترةٍ لاحقةٍ)، هو مجال (التاريخ الاستذكاري إذاً)، الذي يتموقع ما بين التاريخ والذاكرة (الصـــورة أو المخيلة).

منهـــــــــج البحث:

تعتمد الدراسة عل المنهجِ التاريخي المرتكز على قراءة المعطيات أو النصوص، والقائم على تحليل ما تتضمنه من إشاراتٍ وعباراتٍ ثم تأويلها وفهم معانيها ، وبعد أن جُمعت كل النصوص المتعلقة بموضوع البحث ، تم تصنيفها من الأقدمِ إلي الأحدثِ، والتمييز بين ما هو تأريخي ، وجغرافي، رحلاتٍ كانت أم معاجم ، مع مقارنة ما جاء فيها بما توصلت إليهِ بعض أعمال التنقيب الحديثة.

أولاً ـ لمحاتٌ تاريخية حـــول نشأة التمدين وتطوره:

تعرض الساحل الليبي ــ منذ وقت مبكر ــ إلي موجاتٍ استيطانيةٍ قادمة من السواحل الشمالية لبلادِ الشامِ القديمة وبلادِ الإغريقِ ، حيث بدأ الفينيقيون بالتعرفِ على الجزءِ الغربي من الساحلِ الليبي القديم ، في إطارِ رحلاتهم المتجهة إلي غربِ المتوسط حيث إسبانيا مصدر المعادن في العصورِ القديمةِ ([9])، وبما إن أسلوب الإبحار في ذلك الوقت كان يعتمد أساساً على السيرِ بمحاذاة السواحل أو بالاقتراب من الجـــزرِ للاستدلالِ بها أثناء الرحلات، أو الالتجاء إليها عند الضرورة ، فإن الفينيقيين ســـرعان ما اكتشفوا بعض الموانئ الطبيعية الآمنة نسبياً على الساحلِ الليبي، تلك الموانئ التي تحولت مع مـــرور الوقت إلي مستوطناتٍ مؤقتةٍ يعمل أصحابها في الزراعةِ لتموينِ رحلاتهم المارة عبر هذا الطريق ، ومن تلك المستوطنات: أويا ، لبدة ، وصبراتـــة ([10]) (تريبوليس Tripolis) ، وقريباً من هـــذا الزمن كانت المنطقة على موعدٍ مع مدينةٍ عظيمةٍ تُدعى قرطاج ، تلك المستوطنة التي أُسست بين عامي 814 ـ 813 ق.م تقريباً ، حين تحولت تدريجياً من وضعها كمستوطنة صغيرة إلي مدينةٍ

رئيسيةٍ في حوالي العام 700 ق.م ، وقد امتازت بالقوة والقيادة التي أهلتها بأن تحل محل بلاد الفينيقيين الأصلية (سواحل لبنان الحالية) ، تلك البلاد التي اضمحلت وخارت قـــواها تحت ضربات الأشوريين(11) ، فقامت قرطاج بضـــمِ المستوطناتِ الفينيقيةِ في ليبيا لتصبح تحت وصايتها المباشرة، ليبدأ الاستقرار الفعلي في تلك المستوطنات مع بداية العهد القرطاجي حين أحسَ القرطاجيون بخطورةِ التوســـعِ الإغريقي نحو الغرب(12) .

عَرف الإغـــريق السواحل الشرقية لليبيا القديمة منذ العام 631 ق.م تقريباً، حين نزل بتلك المنطقة دوريون من جـــزيرةِ ثيرا (سانتوريون الحالية) ، وعملوا على إنشاءِ أولى مستعمراتهم المُسماة قورينى Cyrene، وبمرورِ الزمن توسّـــعوا في تشييدِ المستوطنات حتى بلغ عدد الرئيسية منها إلي خمسٍ عُرفت باسم (البنتابوليس Pentapolis) وهي : أبولونيا (ميناء قورينى)، تاوخيرا Táuchira، برقة Berca، ويوهسبريديس (13) Euhesperides، إلي جانب قورينى مقـــر الملكية التي أدارت تلك المستوطنات أو المدن حتى سنة 440 ق.م، حين انتهى العصر الملكي نتيجة الصراع على السلطةِ ، لتدخلِ المدن الإغريقية في شرقِ ليبيا القديمة على إثرهِ في حالةٍ من عدمِ الاستقرار(14).

في تلك الأثناء كان الإسكندر المقدوني قد تمكّن من بســـطِ سلطتهِ على مصر القديمة سنة 332 ق.م ، ولتحافظ على استقلالها سارعت تلك المدن الواقعة في الشرقِ الليبي القديم إلي تقديمِ فروض الولاء والطاعة للمقدونيِ وجيشه ، وبذلك استطاعت المحافظة على استقلالِها ولو بشكلٍ نسبي ، وما أن توفي المقدوني سنة 323 ق.م حتى استغل والي مصر القديمة التابع له ــ بطلميوس الأول 366 - 285 ق.م ــ حالة الفوضى التي لم تنتهي في مدنِ الشرقِ الليبي القديم ، ليعلن ضمها تحت ولايته سنة 322 ق.م، إذاناً بفاتحةِ عصرٍ جديدٍ في الإقليمِ ، عُرف في التاريخِ بالعصرِ البطلميِ (15) ؛ لتُدار المنطقة إثر ذلك بحُكامٍ بطالمة ؛ واستبدلت أسماء بعض المدن بأسماءٍ أُخرى ، فأصبحت تاوخيرا تُدعى أرسنوي ، ويوهسبيريدس تُسمى بيرنيكي، وتطـــور ميناء برقة ؛ ليرتقي إلي مدينةٍ حملتْ اسم بطوليميس (16)، وزادت أهمية ميناء قورينى (أبولونيا). (17)

لم يكن حال المـــدن الثلاث في غربِ ليبيا (أويا، لبدة، وصبراتة) أفضل من تلك التي بالشرقِ ، حين عاصرتْ تاريخاً مؤلماً لحروبٍ مدمـــرةٍ عُرفت بالحُروبِ البونيةِ ، حُروباً خاضتها روما ضد قرطاج الفينيقية بدأت في العام 264 ق.م ، وتوقفتْ لبعضٍ من الوقتِ، ثم اُستؤنفت لمراتٍ عديدة، ولم تنتهي إلا بعد تدمير قرطاج سنة 146 ق.م،

وبزوال الأخـــيرة أصبحت المدن الليبية الثلاث تابعة لمملكة نوميديا حليفة روما في المنطقةِ([18]) ؛ فحظيت المدن الثلاث بنوعٍ من الاستقلالِ النسبي أو الحكم الذاتي في ضلِ نوميديا، حتى نشوب الحرب الأهلية في روما بين يوليوس قيصر (100 ق.م ــ 44 ق.م)، وبمومبي (106 ق.م ــ 46 ق.م)، فقد أنحاز جوبا الأول الملك النوميدي (85 ق.م ــ 46 ق.م)، إلي القائد بومبي في تلك الحرب، وعندما خســر بومبي الحرب وانتصر قيصر سنة 46 ق.م ؛ عُقبت نوميديا بتحويلها إلي مقاطعة رومانية تحت مسمى إفريقيا الجديدة ، على غرار القديمة قرطاج([19]) ، وعُقبت المدنِ الثلاثِ في غربِ ليبيا القديمة على مؤازرتها لجوبا الأول ، وأصبحتْ خاضعةً مباشرةً للرومانِ ، فضلاً عن إرغامها على دفعِ ضريبةٍ سنويةٍ لروما تمثلت في كميةٍ كبيرةٍ من زيتِ الزيتون، وفي العام 27 ق.م، أُدمجت ولايتي إفريقيا القديمة والجديدة في ولايةٍ رومانيةٍ واحدة أُطلق عليها اسم الولاية البروقنصلية ، وكانت المدن الثلاث جزءاً منها([20]) .

بقيتْ المدن الإغريقية في شرقِ ليبيا القديمة خاضعة للحُكمِ البطلمي حتى عام 96 ق.م ، حين اشتد الخلاف على المُلكِ بين الحُكام البطالمة ؛ فبدأ التدخل الروماني في الإقليمِ مستنداً على وصيةٍ كان قد تركها آخر الملوك البطالمة في قورينى (بطلميوس أبيون)، أقـــر فيها بأحقيةِ أصدقائهِ الرومان بإدارةِ أملاكهِ الخاصة حين وفاته ، ومنح المدن الإغريقية الأُخـــرى الحرية في إدارةِ شؤونها؛ غير أن الرومان وبدهاء المستعمر استغلوا حالة الفوضى التي عمت مدن الإقليم؛ ليعلنوا ضمها بالكاملِ لتصبح ولاية رومانية سنة 74 ق.م.([21])

هكذا إذاً تحولت مدن الساحل الليبي القديم من منطقةٍ تتنافسها قوتين عظيمتين (قرطاج ـ والإغريق) إلي مقاطعةٍ رومانيةٍ تُدار بواسطة الرومان وعاصمتهم روما، التي استطاعت النهوض بالجانب المعماري، حيث شهدت المدن الثلاث(أويا، لبدة، وصبراتة) أعمالاً جليلةً على أنقاضِ المدنِ الفينيقيةِ القديمة.([22])

ثانياً ــ خرابُ المدن بين فرضياتٍ تتهم، ونصوصٌ تدحض:

1 ـ **إقليـــمُ طرابُلس (تريبوليس Tripolis)** إن ما ذكرتهُ مابل لومس تود في كتابِها (أســـرار طرابلس)، وهي تدعي خراباً حل بالمدنِ التاريخيةِ في ليبيا إثر الفتح الإسلامي للمنطقةِ معبرة عن ذلك بقولها : "انتقلت من روما إلي المسلمين، من إقامة الأعمال الفنية العظيمة، إلي ضربِ أعناق التماثيل وإلقائها على الأرض [...] عندما اندفع المسلمون ودينهم في زحفهم مثلُ إعصارٍ، من مكة والمدينة على طولِ الشاطئِ الإفريقي، طامسين كل آثار المسيحية في تقدمهم الذي لا يقاوم([23]) ." هو حديثٌ

يوحي بتدميرٍ ممنـــهجٍ لكلِ المعالمِ التي تمثل إرثاً يتعارض والدّين الجديد (الإســـــلام)، لكن إذا ما نظرنا فيما ذكره العبدري([24]) (توفي . بعد 688هـــ /1289م) في الرحلة، من أن التمثال الذي يجسد إحدى النساء لازال قائمة حتى عصرهِ سنجده دليلٌ ـ ربما ـ يدحض ما ذهبت إليه تود، فيقول: « وهناك مدينة لبدة، فيها آثار وبنيان عجيب، وفيها من أساطينِ الرخامِ وألواحهِ ما يقصر عنه الوصف، وفيها صورة امرأة من الرخام بإزاء الطريق، ولاشك أن البلد كانت دار مملكة ، وهي الآن متهدمة دارسة ليس بها إلا عمارة قليلة([25]) ».

تشـــــير النصوص التاريخ ـ التي تعود بتاريخِها للعصرِ الإسلامي ـ إلي أن الخراب الذي حل بالمنطقة عند قدوم المسلمون إليها ، كان من بعضِ سُكانها ، وذلك حين أتبع ساستهم أسلوبٍ هو أشبه ما يكون بأسلوبِ الأرضِ المحروقةِ ، بُغية ثني المسلمين ، وإجبارهم على العودةِ، ضناً منهم أن العرب الفاتحين يسعون للاستحواذِ على المدنِ والاستيلاء على ما تزخر بهِ من ثرواتٍ، وليسوا أصحاب رسالةٍ يدعون لها، حيث يذكر النويري([26]) (677- 733هـــ / 1278-1332م) في كتابهِ : (نهاية الأَرب في فنـــــونِ الأدبِ)، متحدثاً عن خرابٍ حل بالمنطقة ، من قِبل الملكة الكاهنة ، قائلاً: « فقالتْ الكاهنة لقومِها: إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ، ولا أرى إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، وفرقتُ أصحابها ليخربوا البلاد، فخربوها وهدموا الحصون، وقطعوا الأشجار ونهبوا الأموال ، قال عبدالرحمن بن يزيد بن أنعم: وكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً وقرى متصلة ، فخربت ذلك([27]) ».

لكن إذا ما وقفنا على بعض المعطيات العربية الوسيطية نجد بها ما ينسجم مع ما ذهبت إليه مابل لومس تود ـ سالفة الذكر ـ ، ففي بعض المصنفات العربية الوسيطية هُناك اتهامات صريحة للعربِ المسلمين تُشير إلي خرابِ المدنِ وتدميرها على أيديهم، فها هو الشريف الإدريسي([28])(493هـــ-559هـــ /1100م-1166م) يسرد في كتابه ــ نزهة المشتاق ، في اختراقِ الأفاقِ ــ حديثاً عن خراب مدينة لبدة قال فيه : ((وكانت مدينة لبدة كثيرة العمارات مشتملة الخيرات على بعدٍ من البحرِ، فسلطت العرب عليها وعلى أرضِها فغيرت ما كان بها من النعمِ، وأجلتْ أهلها إلى غيرِها[29]))، ولم يختلف عنهُ الحميري (ت. 900هـــ /1494م)' صاحب مصنف (الروض المعطار في خبرِ الأقطارِ) بقوله : ((لبدة مدينة قديمة بناحية طرابلس الغرب كانت عظيمة الشأن مبنية بالرخام، وآثارها بادية حتى الآن على أنها كانت دار مملكة عظمى مشتملة على الخيراتِ وعلى بعدٍ من البحرِ فتسلط العرب على أرضِها فغيرتْ ما كان بها من النعمِ ، وأجلت

أهلها إلى غيرِها[30]))، لكن أليس من الغريبِ أن يُرجِع كلٌ من الإدريسي والحميري ومن بعدِهما تود خرابَ مدينة لبدة للعربِ ، وهي التي لم تُفتح عند قدوم المسلمين إلى المنطقةِ ؟ وبمعنى أكثر وضوحاً، إذا كانت لبدة قائمة حتى الفتح الإسلامي ، وهي على هذا الحال من العظمةِ والبنيانِ الذي يتضح من أطلالِها، لماذا تركها عمرو بن العاص خلفهُ، عند قدومهِ إلى طرابلس وصبراتة دون أن يُحاول فتحَهَا أو المساس بِها ؟

يسرد الوزان خبر أقرب للتّصديق حول مدينة لبدة إذ يقول : «لبدة هذه المدينة - أيضا - من بناءِ الروم ، محاطة بأســـوارٍ عاليةٍ مبنية بالحجرِ الضخمِ ، خُربت في الزمنِ الغابرِ، غير أنها عُمرت من جديدٍ لما دخلت جيوش المسلمين إلى البلادِ ، وبقيت عامرة إلى هجومِ الأعرابِ ، حيث خربت مرة أخرى، وتحولت إلى الوضعية التي هي عليها الآن، وقد استعملت أحجارها وأعمدتها لتشييد طرابلس»([31]).

إن اتهام المسلمين بتخريب الآثار القديمة بحجة الماضي الوثني كلامٌ لا يستقيم في ظلِ وجودِ أدلةٍ تدحضُ ذلك من القرآنِ الكريمِ ، فبعض النصوص القُرآنية تدعو إلى التأمُلِ العقلي ، والتبصر فيما آلت إليهِ نهاية بعض الأقوام ، والأُمم ، إذ يقول الله - تعالـــى - : {**لَقَد كَانَ فِي قَصَصِهِم عِـــبرَةٌ لِأُوْلِـــي الأَلبَاب**}([32])، قال ابن كثير الدمشقي - في مصنفه (تفسير القرآن العظيم) - : "يقول - تعالى- في هذه الآية : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين (عبرة لأولي الألباب) وهي العقول" ([33]) ، ثم جاء في سورة غافر { **أَوَلَمْ يَسيرُوا في الأَرّضِ فَينظُروا كَيفَ كانَ عَقبَةُ الذين من قبلهِم كانوا هُـمْ أَشَدَّ مِنهُم قُوةً وءاثاراً في الأرضِ فأخذهُمُ اللهُ بذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللهِ مِن وَاقٍ**) ([34])، وتفسير ذلك عند ابن كثير الدمشقي ، أن سبب العذاب الذي حلّ بالأمم السابقة مرده إلي تكذيبهم بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- ، مع أنهم كانوا أشـــد قوة([35]) { **وآثاراً في الأرض**}، يقـــول : « أي : أثـــروا فـــي الأرض من البنايات والمعالم والديارات" ([36]) ، وبالمعنى ذاته ــ تقريباً ــ يفسر قوله - تعالى- من السورة ذاتها {**أَفَلَم يَسِيرُواْ فِي الأَرضِ فَيَنظُرُواْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبلِهِم، كَانُوا أَكثَرَ مِنهُم وأَشَدَّ قُوَّةً وءَاثَاراً فِي الأَرضِ فَمَا أَغنَى عَنُهم مَّا كَانُوا يَكسِبُونَ**)([37]) .

إن المتأمل في النصِ القرآني يجد حثاً على التأمُلِ والنظـــر باستخدامِ العقلِ في آثارِ الأقوامِ الغابرة ، ليتحقق المقصد الشرعي وهو العبرة ، وقد تخَلَّقَ المسلمون بهذا الخُلق إبان عظمة الأمة ، وليس أدلّ على ذلك من نصٍ يصف فيه ابن الرقيق أو الرقيـــق القيرواني([38]) ــ توفي . نحو 425هـــ /1033م ــ كيف تعامل وتفاعل موسى ابن نصير

مع آثار المـــدن القديمة وهـــو في طريـــق عودته من المغرب إلى الشامِ فيقول : " ثم رحل إلى المشـــــرق ومعه طارق ، وقد قفُل بهِ وبكلِ ما أصاب من الأمـــوالِ والجواهـــرِ والمائدة ، وخلّف على إفريقيةِ عبد الله ابنه وكان أكبر بنيه ، وعلى طنجة ابنه عبد الملك ، وسار حتى إذا مـــرّ بخربةٍ عاديةٍ أو مدينةٍ من مدائـــنِ الأولين ، نزل فركع ركعتين ومشى فيها وفكّر في معالمها وآثارها وبكى بكاءً كثيراً " ([39])

لا يمكن تفســـير ما قام به موسى بن نصير حين ترجّـــل عن فرسهِ ، وتأمل في آثار الأقوام السابقة ، وقام بالصلاةِ في جنباتِها ، مع البكاء الشديد بعد التدبر، إلا من خلالِ النظرةِ الإيجابية للمسلمين آنذاك ، نظرةً تنبثق من الإيمانِ بقدرةِ اللهِ ، وحثه لعبادهِ على التأملِ في ما مضى ، انطلاقاً من قوله- تعالى- : {**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُوْلِي الأَلَباب** }([40])

إن الوصف الأثـــري للتيجاني([41]) (توفي .سنة 718هـ / 1318م) المتعلق بقوسِ ماركوس أوريليوس([42]) ، ـــ وهو الأثر الوحيد المتبقي من طرابلس الرومانية ـــ يحمل - أيضاً - إشارةٍ تفند تلك المزاعم التي تتهم المسلمين بالنظرةِ المتطرفةِ تجاه آثار من سبقهم من أُممٍ ، فيقول وآصفا القوس : " وبين هـــذه المدرسة [يقصد المدرسة المنتصرية] ([43]) وباب البحر مبنى من المبانيِ القديمة العجيبة ، وهو شكل قبة من الرخـــامِ المنحوتِ ، المتناسب الأعالي والتحوت ، التي لا تستطيع المائة نقل القطعة الواحدة منها ، قامت مربعة ، فلما وصلت إلى السقفِ ثمنت على أحكامٍ بديعٍ ، وإتقانٍ عجيبٍ صنيع، وهو مصور بأنواعٍ من التصاويرِ العجيبةِ ، نقشا في الحجارةِ ، وقد بنى الآن عليه مسجد يُصلي فيه، وأخبرت أن ذلك كان لأن بعض الكبراء حاول هدمها، وأخذ رخامها وعلى بعض قطعها الشمالية، أسطر مكتوبة بخط رومي...." ([44])

قد يكون في قيام الأهالي بتحويل القوس إلى مسجدٍ للصلاةِ أو أصبح جزءً منه ـــ منعا لهدمه وإعادة استخدام حجارتهِ ـ دليلٌ آخر يؤكد على أن تفكيك المباني كان لغرضِ بناء دورٍ جديدةٍ، وليس من بابِ النظرة المتطرفة، هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر أن الرسومات والنقائش التي ذكرها التيجاني لم تُثني الساكنة على جعله مسجداً للصلاة ، أو جزاءً من مسجد برغم اختلاف المعتقد، والفنِ والثقافة لشعبٍ يختلف كل الاختلاف مع ما جاء بهِ الإسلام، والمسلمون.

يقترنُ ذكرُ مدينة طرابلس في المعطياتِ التي تعـــودُ للعصرِ الإسلامي مع وصف سورها الجليل البُنيان ، لكن تاريخ إنشائهِ يختلف كل الاختلاف مع ما جاء في الدراساتِ الحديثةِ ، فهذهِ الأخـــيرة تُشـــير إلي أن السور المحيط بطرابلس ـــ والذي ذُكر في المصنفات العربية الوسيطية ـــ قد شُيد في العصر الروماني، وتحديداً في زمن

الإمبراطور سبتميوس سيفيروس (193 ــ 211م)[45] ، لكن لدى التيجاني رأيٌ آخر، حين ذكر بأن الســـور القديم قد تم هدمه زمن الفتح ، وبُني على إثره سوراً جديداً بعد أن استقر الأمر للمسلمين، وبالتالي فإن السور المشار إليه في النصوصِ الإسلاميةِ السابقة لزمنِ التيجاني هو سورٌ بناهُ المسلمون ، وليس روماني، فيقول في نصٍ : " واحتوى عمرو [يقصد عمرو بن العاص- رضي الله عنه -] على المدينة فهـــدم ســـورها وارتحل عنها ، ثم جُـــدّد بناء سورها من جهةِ البرِ على يدِ عبدالرحمن بن حبيب ، المتغلب على إفريقية ، في آخرِ دولِة بني أُمية، سنة اثنين وثلاثين ومائة ، وتأخّـــــر بناءهُ من جهةِ البحرِ إلي ولاية هُرثمة ابن أعين على إفريقيةِ ، من قِبل الرشيد سنة ثمانين ومائة، فهو الذي بناهُ على يدِ ثقتهِ زكريا بن قادم، ثم زاد في إتقانهِ ورفعِ بنائهِ من جهةِ البرِ والبحرِ معاً أبو الفتوح زيان الصقلبي، متولي طرابلس عام خمسة وأربعين وثلاثمائة" [46]

يرى الطاهر الزاوي أن هـــدم السور مردهُ إلي خشيةِ المسلمين من عودةِ الرومِ إلي المنطقةِ ، وتحصنهم بها[47] ، وهو اتجاهٌ واكب مسيرة الفتح الإسلامي كما يبدو، لكن لبازاما رأيٌ يتعارض والزاوي ، بل ربما لا يثق أصلاً فيما ذكره التيجاني ، بحجةِ أن ما ذكره الأخير لم يسبقه إليهِ أحدٌ من مؤرخي العصر الإسلامي المشهود لهم بتقصي وتدوين الأحداث التاريخية ، وخصوصاً أن التيجاني لم يُعين مصدره فيما ذَكر[48] ، وهذا يتفق تماماً مع ما جاء في كتاب الاستبصار، حيث ورد فيه ما يدل على أن الســـور قد تم بناءهُ قبل العصر الإسلامي ، حين قال مؤلفه : " فأول مدن إفريقية على الساحلِ مدينة أطرابلس [49]، وهي مدينـــــة كبيرة أزلية على ساحلِ البحرِ، والبحر يضرب في سورها ، وســـورها من حجرٍ جليلٍ من صُنع الأولين[50]، الأمـــر ذاته نجده عند الحميري ، حين قال: " طرابلس من مدن إفريقيـــة ، وهي مدينة كبيرة أزلية، على ساحل البحر يضرب في ســـورها، وهو من حجرٍ من بناءِ الأولِ " [51].

قد يُخطي المـــؤرخ ، أو الكاتب وقد يصيب ، فرغم إصـــرار بعضهم على خطأ تقدير التيجاني لزمن بناء السور إلا أنه قد أصاب حين تحدث عن (الستارة)، فأثناء حديثهِ عن سور المدينة ، أشار إلي سورٍ آخر بُني في العصرِ الإسلامي يُعرف بالستارة في قوله : "ويحيط بهذا السور [أي : السور القديم] الآن فصيل آخر أقصر منه على العادة يسمونه الستارة، ولم يكن في القديمِ ، وإنما أمر ببنائهِ الشيخ أبو محمد عبدالواحد ، بن أبي حفص ، أيام وصوله إلي طرابلس في شعبان من سنة أربعة عشر وستمائة ، رأيت هذا مكتوب على بابٍ من أبوابِ الستارة"[52] ، ولم يُعرف عن آثار الستارة شيءً قائم حتى العام 1964م ، وأثناء عملية ربط المجاري المائية غرب المدينة القديمة ،

ظهرت خلال الحفر معالم ســـــورٍ يبلغ سمكه 7.20متر، وبموازاته من الناحيةِ الغربيةِ - أيضاً - عُثر على بقايا ســـــور آخر سمكه ستة أمتار، وفي سنة 1971م، أُجريت حفرياتٍ بميدانِ الشـــــهداءِ (الحالي) الواقع شـــرق المدينة، عُثر من خلالها على أساساتٍ يُعتقد أنها الفصيل الذي ذكره التيجاني([53]) .

تُعد القلعة - الواقعة في الركنِ الجنوبي الشرقي من المدينةِ - من أهمِ المعالمِ التاريخيةِ بها ، وقد اختلفت الآراء حول الأُصول الأُولى لبناءِ القلعةِ ، فبعضُهم يُرجعها للعصرِ الروماني ، بينما يعتقد آخرون بأنها بيزنطيةٍ ([54])، لكن بوجـــود أَعمدة رُخامية ضخمة من الطرازِ الكورنثي ([55]) يُرجح الأصل الروماني للقلعةِ ([56])، مع العلم أن أقدم الآثار الموجودة بها الآن ــ إذا ما استثنينا قوس ماركوس أوريليوس ــ هي آثار تعود لفترةِ الاحتلالِ الإسباني للمدينة (1510 ــ1530م) ([57])، أما القلعة الرومانية فيزعم البعض بأنها هُدمت بالتزامن مع هدم السور أثناء الفتح الإسلامي([58]) ، لكن يضل التيجاني شاهداً يدحضُ بنصوصهِ ومشاهداتهِ تلك المزاعـــم ، ففي نصٍ أشار فيه إلي بقاءِ القلعة صامدة حتى عصره منوهاً للخرابِ الذي حل بها بقوله: " ولما توجهنا إلي طرابلس وأشرفنا عليها، كاد بياضها مع شُعاع الشمسِ يغشي الأبصار، فعرفت صدقَ تسميتهم لها بالمدينةِ البيضاء ، وخرج جميع أهلُها مظهرين للاستبشارِ رافعين أصواتهم بالدُعاء ، وتخلى والي البلاد إذ ذاك عن موضع سكناهُ ، وهو قصبة البلدِ، فنزلنا بها ورأيت آثار الضخامة بادية على هذهِ القصبة، غير أن الخراب قد تمكن منها ، وقد باع الولاةُ أكثرها، فما حولها من الدورِ التي تكتنفها الآن إنما أُستخرجت منها، ولها رحبتان متسعتان([59]) "، ومع هـــذا لا يعفي ما ذكره التيجاني القائمين على المدينةِ من المســـؤولية التاريخي لما لحق بها من خرابٍ وإهمالٍ وتفكيكٍ ساهم في اندثارها بعد تصدُع أركانها.

2/ إقليم برقة (البنتابوليس Pentapolis) : تحدثنا عن إقليم طرابلس، وعرفنا بعضاً من أسبابِ خرابِ المعالم، بقي لنا تتبع المشهد في إقليمِ برقة فهل في الأُستغرافيا المتعلقة بالفترة القروسيطية للعربِ ما يؤكد على حقيقةِ اندثار الآثار بطريقةِ التفكيكِ لبناءِ الدورِ الجديدةِ، أما أن فرضيت التدمير الممنهـــج من قبلِ المسلمين صامدة أمام كل تلك الاحتمالات؟

يتحدثُ ابن حوقل([60]) (توفي سنة 367هـ /977م) في كتابهِ صورة الأرض عن مدينة برقة قائلاً: «فأما برقة فمدينة وسط ليست بالكبيرةِ الفخمةِ ولا بالصغيرةِ الزريةِ، ولها كور عامرة غامرة ، وهي في بقعةٍ فسيحةٍ تكون مسيرتها يوما وكسر في مثلهِ ،

ويحيط بالبقعةِ جبل من سائرِ جهاتها، وأرضها حمراء خلوقية التراب وثياب أهلها أبدا مُحمرة، [...] وهي برية بحرية ووجوه أموالها جمة" ([61])

في العبارةِ الأخيرةِ لابن حوقل إشارة ـ على ما يبدو ـ إلي اقتصادِ المدينةِ المعتمد على الزراعةِ من جهةٍ، وعلى مينائها القديم (طلميثة) من جهةٍ أُخرى، الأمر الذي شجعها على أن تحتل مكانةً مميزةً بين مدن الإقليم، حتى قال عنها المقدسي: "فأول كورة من قبلِ مصر برقة، ثم إفريقية، ثم تاهرت، ثم سجلماسة ، ثم فاس، ثم السوس [...]، فأمة برقـــــة فاسم القصبة – أيضاً- ([62]) "

غير أن ذاك الازدهار الذي أشار إليه ابن حوقل، ومن بعده المقدسي ، لم يكتب له الاستمرار طويلا، حيث أشار الإدريسي في القرن السادس الهجري إلى ذلك بكلِ وضوحٍ، قائلا: « فأما مدينة برقة، فمدينة متوسطة المقدار، ليست بكبيرة القطر ولا بصغيرة، غير أنها في هذا الوقت عامرها قليل وأسواقها كاسدة، وكانت فيما سلف على غير هذه الصفة" ([63]).

وهي إشارة واضحةٍ إلي ركودٍ اقتصادي تسبب في نزوحِ بعض ساكنيها عنها، ومع حلول القرن السابع الهجري، تحولت برقة ــ على ما يبدو ــ من مدينة آهلة بالسكان إلى مدينة مهجورة تماما، ولم يبقى سوى أطلالها، حيث يقول المراكشي([64]) (581هـ-647ه/1185م-1249م) في مصنفه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) ما يلي نصه : ((وأول حد بلاد إفريقية والمغرب مدينة أنطابلس، المدعـــوة ببرقة بناها الروم فكانت حاضرة لتلك البلاد ومجتمعا لها، افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنها كان ابتداء فتح المغرب، [...] ومدينة أنطابلس هذه خراب لم يبقى منها إلا آثارها[65])).

إن ذاك الخراب الذي تحدث عنه المراكشي أشار إليه كذلك ابن سعيد المغربي([66]) حين كان يســـرد المسافات بين المناطق ، ومن قولهِ: " ورأس طلميثة، وهي فرضة مشـــهورة هناك وبها قصران فيهما اليهود الذين هم تحت خفارة العرب ، ومنها تحمل المراكب الكبريت والعسل والشعير، وفي شرقيها مدينـــة برقة التي كانت قاعدة البلاد البرقية ، فخربها العرب ، ويقال لها اليوم مدينة المرج وبينها وبين طلميثة عشـــرة آميال" ([67]) ، لكن أن يصف ابن سعيد جنس المخربين (بالعرب) ، يبقى مجرد اتهام يفتقد للدليل ، فمن زاويةٍ أخرى هناك ما يؤكدُ وبقـــوة أن المدينة أصبحت ــ منذ بداية القرن السادس الهجري ــ تُهجر، إثر شللٍ اقتصاديٍ حل بها ، وهو ما ذكرهُ الإدريسي كما أسلفنا.

ومع نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، وبداية القرن الخامس عشر الميلادي، وهي الفترة التي عاش فيها ابن خلدون([68]) تقريبا، تحولت كل مدن الإقليم إلى أطلالٍ، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بكلِ وضوحٍ قائلا: « وأما برقة فدرست معالمها وخربت أمصارُها وانقرض أمرها ، وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت دار للواتة وهـــوارة وغيرهم من البربرِ وكانت بها الأمصار المستبحرة" ([69])

لكن أليس من الغريب أن تنتهي تلك الحضارة بمجرد قدوم المسلمون إلى المنطقةِ، وتتحول معالمها المعمارية إلي أطلال أم هناك أسباب أُخرى سبقت الفتح العربي ؟

تشير الدراسات الحديثة إلي كوارثٍ بيئيةٍ وبشريةٍ تعرضت لها المنطقة المغاربية في النصف الأخير من القرن الرابع الميلادي (أي : قبل الفتح الإسلامي)، حين تعرضت لزلزالٍ مدمـــرٍ حوالي العام 365م ، فضلاً عن ثورات القبائل الليبية التي نجحت في شن الهجمات المنظمة على الموانئ الرومانية في الشمالِ ، انطلاقاً من المناطقِ الداخليةِ، مستفيدة من حالةِ الضعفِ والانقسام التي عصفت بالإمبراطوريةِ الرومانيةِ ، واستمر الصراعُ بين كرٍ وفر([70]) حتى ظهر على مســـرح الأحداثِ عدوٌ جديد تمثل في الوندالِ الذين عبروا إلي المنطقة قادمين من شبهِ جزيرةِ أيبيريا، عبر المضيق المعروف (بمضيق جبل طارق).([71])

تعد الفترة التي ســاد فيها الوندال على إفريقيا الشمالية (المغرب القديم) من الفتراتِ المظلمةِ في تاريخها ، حيث اتبع ملكهم جنسريك (430 ـــ 477م) سياسة تقوم على هـــدمِ أسوارِ المدنِ خِشـــية التمردِ ، فضعفت المدن وهجرها بعض ساكنيها فراراً عبر البحر([72]) ، وتحولت موانيها ـــ على ما يبدو ـــ إلي معاقلٍ للســـفنِ التي أُستخدمت من قبل الوندال لشن الغارات على السواحلِ الأوربيةِ، وجـزر المتوسط، بهدفِ السلبِ والنهبِ، كما عملوا على توجيهِ هجماتهم نحو الداخل الليبي مما أثار حفيظة السكان الأصليين فثاروا عليهم، وصدوا هجماتهم، مما أضعف وجودهم الذي استمر زها القرن من الزمنِ، منذ احتلالهم لقرطاج سنة 439م، وحتى طردهم على يد الإمبراطور البيزنطي (جستنيان527 ـــ 565م) عام 534م([73]) .

حـــاول البيزنطيون إعادة الاســـتقرار إلي المنطقةِ بإجراء بعض الإصلاحات الإدارية والدينية والعمرانية، حين قامـــوا بنشر الديانة المسيحية وشيدوا الكنائس ، بل حولوا العديد من البازليكات إلي دورٍ للعبادة، لكنهم اخطئوا عندما عمدوا إلي مصادرةِ الأراضي الصالحة للزراعةِ، وفرضـــوا الضرائب العالية بالقوةِ ، فثارت القبائل الليبية مجدداً وانتشـــرت الفوضى ، وعم الخراب، والسلب والنهب ، وجاء الفتح الإسلامي ووجد المنطقة حبلى بالصراعات ؛ مما سهل عملية الفتح([74]) .

تقدمت جيوش المسلمين وفتحت المدن الكبرى إما صُلحاً أو بالقوة، أما لبدة ـ في هذه الأثناء ـ فقد كانت لا تزيد عن بُليدة[75] صغيرة تقيم بجوارها قبيلة هوارة، فقد أصابها الضعف والانكماش نهاية العهود الرومانية ، وبعد فترة الانتعاش القصير في العهد البيزنطي لم تعد هذه المدينة العظيمة كما كانت في سالف عهدها بل استمرت في التضاؤل والانحسار نتيجة الصراعات التي تعرضت لها المنطقة[76] ، مما دفع ساكنيها ـ ربما ـ إلى النزوح الجماعي عنها ، وهو بالضبط ما فعله سكان مدينـــة صبراتة بعد الفتح الإسلامي ، إذ من المحتمل أنهم خرجوا بشكلٍ جماعي عام 462م، فصارت المدينة خاوية ولم تُغـــري السكان الأصليين الذين ألفوا حياة البداوة وسكن الصحراء بأن يُعمروها ، وربما في هذا الطابع يكون التقاء العرب الفاتحين مع أولئك الأصليين في تشبثهم بحياة البداوة ، ناهيك عن خشيتهم من سكن المدن الساحلية المعرضة للغـــزو، إذا ما استثنينا طرابلس، فنراهم يتركون طلميثة كبرى المدن البيزنطية في الشرق الليبي، ويستقرون ببرقة (المرج) الواقعة بالداخل، وهو بالضبط ما فعلوه عند اختيارهم للقـــيروان بإفريقية [77] ، وبالتالي عـمّ الخراب بالمدن المهجورة ، وفضل الناس التوسع خارج أســـوارِ المدنِ ، بمعنى أدق أنه عندما فُتحت مُدن الإقليم لم تعُد الحاجة لمدنٍ محصنةٍ بأسوارٍ وأبوابٍ من حديدٍ ، خصوصاً إذا ما علمنا أن قوة الدولة الإسلامية كانت في أوجها آنذاك ، وأن قرب برقة من مصر جعلها أكثر أمناً ـ ربما ـ ، وليس أدل على ذلك من قول عبدالله بن عمر بن العاص، حين أثنى على الإقليم واصفاً الأمان الذي ينعم بهِ أهلهِ بقولهِ : لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعز منها " [78] ، أمانٌ شجع الساكنة ــ على ما يبدو ــ لترك المدن، والعيش في قرى بالأريافِ والمناطق الزراعية، في الوقتِ الذي اضمحلت فيهِ الحياة بالمدينةِ المحصنة تدريجياً، فاستخدمت حجارتها لبناءِ الدور الريفية.

قد يلقى هذا الطرح اعتراضاً من قِبلِ بعضهم ، لكن إذا ما تم النظر فيما ذكره جون رايت في كتابهِ : (تاريخ ليبيا منذ أقدم العصـــور) ، لتبيّـن أن هذا الاحتمال وارد بنسبةٍ كبيرةٍ ، فهو إذ يتحدث عن المنطـــقة في العصرِ البيزنطي ، يشير إلى خرابٍ حل بالمنطقة منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، فأصبحت شبه مهجورة، لأن سكان المدن – حسب رايت – أصبحوا منذ القرن الرابع الميلادي يتحولون إلى الريف ، حيث كانت الحياة الزراعية أيســـر وأوفـــر، وهو اتجاه واكب الاتجاه العام للإمبراطورية في ذلك الوقت ، حيث كان سكان الأرياف يتكاثرون ، بينما تضمحل الحياة في المدن ، وكان شمال برقة أكثر أمنا وحماية زمن البيزنطيين ، مما كانت عليه منطقة طرابلس زمن الوندال ، ولازالت تتناثر على الجبل الأخضر آثار كثيرة من القرى التي ترجع

إلى ذلك العهد من القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، وكذلك القلاع الحصينة ، لأن الجبل ــ حسب قوله ــ هو منطقة حدود معرضة للغزو من قبائل الصحراء، وكان المزارعـــــون بخلاف الطرابلسيين محاربين يدافعون عن البلد كله لا عن حدود معينة([79])

هذا ما قاله رايت ، لكن لابن خلدون رأي آخـــر يدفع المتأمل فيهِ إلي القولِ بأن في الأمرِ سُنةً كونية، وطبيعة بشرية ، فزوال الدول بزوال المدن فإن هي بقية فالمدن باقية ، وإن هي اضمحلت فهي أيضاً مندثرة، حيث ذكر في المقدمة الشهيرة وهي الجزء الأول من تاريخه ما يلي نصه : " فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المُدُنِ من الدولةِ والمُلكِ، ثم إذا بُنيت وكمُلَ تشييدُها بحسبِ نظرةٍ من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماويةُ والأرضيةُ فيها فعُمرُ الدولةِ حينئذٍ عُمرٌ لها فإن كان عُمْرُ الدولةِ قصيراً وقف الحل فيها عند انتهاء الدولةِ وتراجع عُمرانُهَا وخَربتْ [...] وأما بعد انقراضِ الدولةِ المُشيدةِ للمدينةِ فإما أن يكون لضواحي تلك المدينةِ وما قاربها من الجبالِ والبسائطِ باديةٌ يمدها العُمران دائماً فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عُمرها بعد الدولة ، لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلي غايتها من الرفهِ والكسبِ تدعـــو إلي الدَّعةِ والسكونِ الذي في طبيعةِ البشر فينزلون المدن والأمصارَ ويتأهلونَ ، وأما إذا لم يكن لتلك المدينةِ المؤسسةِ مادةٌ تفيدُهَا العُمرانَ بترادف الساكنِ من بدوِهَا فيكون انقراضُ الدولةِ شيئاً فشيئاً إلي أن يبذعِـــرَّ [أي : يتفرق] سَاكِنُهَا وتَخْرَبَ".([80])

من هذا المنطلق يمكن القول أن أعمال التخريب التي قام بها المسلمون لم تكن تنســـــجم مع مبادئ الدين الإسلامي كما يسوق لذلك بعضهم ، بل هي ظاهرة تفكيك بدأت منذ ما قُبيل الإسلام (في نهايةِ العصرِ البيزنطي)، واستمرت طيلة العصر الإسلامي ، بغرض العيش خارج أسوار المدن في القرى الريفية ، للعمل في الزراعة، وربما في ما ذكره أبي الفداء دليلٌ على هذا المذهب ، إذ يقول: " وولاية برقة تجاور الديار المصرية ، وهي بين ديار مصر وديار إفريقية ، وبرقة ولاية طويلة استولت عليها العرب ، وليس بها في زماننا مدينة جليلة ممصرة [...] ولبرقة جبلان فيها عدة ضياع نفيسة وعيون ماء جارية ، ومزارع وآثار بناء للروم جليلة" ([81]) .

الخاتمة:

يتضـــــــح مما سبق ذكره أن الأستغرافيا العربيـــــة المتمثلة في المصنفاتِ الوسيطيةِ قد تحملُ بين طياتها معطياتٍ تفيدُ في إيضاح بعض الغموض الذي ساد المرحلة الانتقالية بين العصرين (القديم ــ والوسيط)، تلك المرحلة التي شهدتْ تغيراتٍ كبيرةٍ على كافةِ المستوياتِ (عقائديةٍ كانت أم اجتماعيةٍ، وحتى الثقافية)، فأعمال

التخريبِ التي قام بها المسلمون لم تكن تنسجم مع مبادي الدين الإسلامي كما يسوق البعض، بل هي ــ على ما يبدو ــ ظاهرة تفكيك بدأت منذ ما قُبيل الإسلام (في نهايةِ العصرِ البيزنطي) ـ سبقتها أحداث مروعة عصفت بالمنطقة ــ واستمرت طيلة العصر الإسلامي ، بغرضِ العيشِ خارج أسوار المدن في القُرى الريفية ، للعمل في الزراعـــةِ هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أُخرى هي ظاهرة طبيعية أكدها ابن خلدون بربطهِ لزوالِ المدنِ بزوالِ الدولِ مع بعض الاستثناءات بطبيعة الحال.

إن إشراك المعطياتِ العربيةِ الوسيطيةِ لفهم حقيقة وأسباب زوال المدنِ التاريخيةِ القديمة ، وهجرُها قبل كل شيء ــ خصوصاً إذا ما سلمنا بأن تلك المعطيات هي بمثابةِ الشاهدِ الأخير على تلك الوقائع ــ هو أمرٌ يستحق النظر فيهِ، بكلِ نجردٍ وموضوعية، وحتى نُظهرَ دراساتٍ معمقةٍ تبحث في الصيرورةِ التاريخيةِ للمنطقةِ والشواهدِ الأثريةِ بها، لابد من إقحامِ المصادرِ العربيةِ في العصرِ الإسلامي كمصدرٍ مكملٍ للمصادرِ الكلاسيكيةِ، والأركولوجيةِ، ولا يجب علينا التسليم بالفكرةِ القائلةِ : " أن المعطيات العربية الوسيطية، لا تصلح لكتابة التاريخ الليبي القديم "، بحجة أن تلك الكتابات لم تُعر اهتماماً كبيراً لتدوين ما قد يكون متداولاً آنذاك، من أساطيرٍ وشواهدٍ ارتبطت أحداثها بفترةِ ما قبل الإسلام ، بحجة تعاملها مع ذَاكَ التراث المادي والأسطوري القديم، (كتراثٍ جاهليٍ) جبه الإسلام.

الهوامـــــــش:

[1] ـ إبراهيم بيضون ، مسائل في الكتابة التاريخية العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، الفكر العربي، العدد 58، بيروت، لبنان، (1989)، ص9.

[2] ـ فترة العصور الوسطى.

[3]ـ الحميري : عالم بالبلدان والسير والأخبار، أندلسي من أهل سبته، يرجح بأنه كاتباً يعمل في توثيق العقود، حيث عُثر في إحدى مخطوطات كتابه على كلمة (عدل) مضافة إلي اسم المؤلف، ما يؤكد عمله في توثيق العُقود، أما كتابه فأسماه (الروض المعطار في خبر الأقطار) مجلدان، أتم تأليفه في (جدة) ثغر الحجاز سنة866هـ/ 1461م، واختير منه ما يخص الأندلس في كتاب سمي(صفة جزيرة الأندلس) الذي ترجم للفرنسية. للمزيد يراجع: : خير الدين بن محمود بن محمد بن فارس، الزركلي، الأعلام، باب السهيلي، ط15، دار العلم للملايين، 2002م، ج7، ص32، وكذلك السيد عبدالعزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، د. ت، ص225 ـ 226، وكذلك: وكذلك الموسوعة العربية، باب الحميري، ص1، أول وأضخم عمل من نوعه وحجمه ومنهجه في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، عمل موسوعي ضخم اعتمد في بعض أجزائه على النسخة الدولية من دائرة المعارف العالمية، World b00k international، شارك في إنجازه أكثر من ألف عالم ومؤلف، ومترجم ومحرر، ومراجع لُغوي، ومخرج فني، ومستشار، ومؤسسة من جميع البلاد العربية، وكذلك: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية: هاشم صلاح الدين عثمان ، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط2، 1987م، ص485.

[4]ـ الآزاج: هو ضرب من الأبنية والجمعُ أُزجٌ، وأزاجٌ، للمزيد يراجع: اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ج1، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، (1987م، ص298)

[5] ـ الحميري الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، (1984م، ص427).

[6] ـ **القروسطية** : مصطلح يستخدم لاختصار كلمة القرون الوسطى ، أو الوسيطية.

1- Gautier E. F, Le passé de I'Afrique du bibliotheque historique paris,1942, Nord, Les siecles obscures, p30.

[8] ـ مابل لومس تود ، أسرار طرابلس، دار ف المحدودة، لندن، (1985م)، ص53

[9] ـ أحمد أنديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهير للنشر، والتوزيع، مصراته، ط1،(1993م)، ص33.

[10] ـ جون رايت ، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، تعريب عبدالحفيظ الميار، وآخرون، ط1، الناشر الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1972م، ص ص22 ـ 24.

[11]ـ أحمد أنديشة ، المرجع السابق، ص37.

[12] ـ محمد الصغير غانم ، التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، (1982م)، ص98.

[13]ـ هنري رياض ، وآخرون، مصر في العصر الهلنستي، تاريخ إفريقيا العام، م2، إشراف مختار جمال ، اللجنة العلمية الدولية لتاريخ إفريقيا العام، اليونسكو،(1985م)، ص201 ـ 202.

[14] ـ مصطفى كمال عبد العليم ، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، (1966م)، ص121.

[15] ـ البطلمي: نسبةً إلي القائد بطليموس؛ ذلك لأنه بعد أن توفي الإسكندر المقدوني، انقسمت الإمبراطورية إلي ثلاث ممالك وهي: الدولة السلوقية؛ أسسها القائد سلوقس وعاصمتها أنطاكيا، وضمت العراق وإيران، وآسيا الصغرى، وسوريا، ودولة البطالمة أو البطالسة؛ التي أسسها القائد بطليموس في مصر القديمة، وعاصمتها الإسكندرية، وأخيراً الدولة الانتغوانية؛ فقد أسسها القائد انتيغون في مقدونيا وعاصمتها مدينة بيلا Peiia. ينظر: شوقي أبوخليل ، الحضارة العربية الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، 1993م، ص54.

[16] ـ مصطفى كمال عبدالعليم ، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية،(1966م)، ص122.

[17] ـ عبداللطيف محمود البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، ط1، دار صادر، بيروت،(1971م) ص262.

[18] ـ محمد علي عيسى ، مدينة صبراتة، الإدارة العامة للبحوث الأثرية والمحفوظات التاريخية، (1978م)، ص ص31 - 33.

[19] ـ جون رايت ، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، المرجع السابق، ص ص40 - 42.

[20] ـ أحمد أنديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، مصراتة، ط1،(1993م) ص62 - 63.

[21] ـ مصطفى كمال عبدالعليم ، المرجع السابق، ص122.

[22] ـ جان مازيل، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة: ربا الحنش، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع،(1998م)، ص 199 - 201.

[23] ـ مابل لومس تود ، أسرار طرابلس، دار ف المحدودة، لندن، (1985م)، ص53

[24] ـ العبدري: صاحب الرحلة المعروفة باسمه، كانت بلنسية هي موطن أسرته في بلاد الأندلس، للمزيد يراجع: خير الدين بن محمود بن محمد بن فارس، الزركلي، الأعلام، باب السهيلي، ط15، دار العلم للملايين، (2002م)، ج7، ص32، وكذلك السيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، د. ت، ص225 - 226.

[25] ـ العبدري، الرحلة، ط 2، دار سعد الدين للطباعة والتوزيع، (2005م)، ص 483 .

[26] ـ النويري (677-733هـ/ 1278-1332م): عالم بحاث غزير الاطلاع، نسبته إلي نويرة (من قُرى بني سويف بمصر)، ومولده ومنشأه بقوص، أتصل بالسلطان الملك الناصر الذي وكله بعض أموره، وتقلب في الخدمة الديوانية، كان ذكي الفطرة، له مصنف (نهاية الأرب في فنون الأدب)، كبير جداً وهو أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره، توفي في القاهرة، يتألف كتابه من واحد وثلاثين مجلداً، طبع منه18 مجلداً، وبقية الموسوعة مازالت مخطوطة، والكتاب يشتمل على مواد أدبية، ولغوية، وجغرافية، وإدارية، ودينية، وتاريخية، للمزيد يراجع: الزركلي المرجع السابق، ج7، ص165، وكذلك السيد عبدالعزيز سالم، المرجع السابق، ص198.

[27]ـ شهاب الدين احمد عبدالوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قميحة و آخرون، ج 24، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 2004م، ص19

[28] ـ الشريف الإدريسي: مؤرخ من أكابر العلماء بالجغرافيا، من أدارسة المغرب الأقصى، ولدى بسبتة ونشأ وتعلم بقرطبة، زار كثيراً من نواحي الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى، وصقلية، وفي الأخير بملكها النورمندي روجار (Roger) الثاني، فأُعجب بعلمه وطلب منه روجار أن يولف كتاباً عن صورة الأرض مبني عن مشاهدة مباشرة، غير مستخرج من الكتب، فلما أنتهى من تأليفه سماه نزهة المشتاق، أو الكتاب الروجاري، وقد لقب الإدريسي ب(سترابون العرب)، ويعتر أعظم جغرافي العرب في العصور الوسطى. للمزيد يراجع: الزركلي المرجع السابق، ج7،ص 24، وكذلك: السيد عبدالعزيز سالم، المرجع السابق، ص303 - 204.

[29] ـ محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسيني الطالبي، المعروف بالشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1409 هـ، ص 308.
[30]ـ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص 508.
[31] ـ حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ترجمة : محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م،ط2، ص 96
[32]ـ ســـــورة يوسف ، الآية : 111.
[33] ـ الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج2، دار الوليد، طرابلس، الجماهيرية، ص.562
[34] ـ سورة غافر، الآية21.
[35] ـ الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، المرجع السابق، ج4، ص90
[36] ـ المرجع نفسه، ج4، ص90
[37] ـ سورة غافر، الآية81.
[38] ـ الرقيق القيرواني: مؤرخ أديب من أهل القيروان، عاصر الدولة الصنهاجية، ورحل إلي مصر سنة388هـ/ 998م، وعاد إلي وطنه فتوفي فيه على الأرجح، وصفه أبن رشيق (صاحب العمدة) بأنه شاعر سهل الكلام، لطيف الطبع، وذكر أبن خلدون في (المقدمة)، أن أبن الرقيق هو مؤرخ إفريقية، والدولة التي كانت في القيروان، ولم يأتي بعده إلا مقلد، ونعته ياقوت (في معجم الأدباء) بالكاتب. يراجع الزركلي المرجع السابق، ج1، ص57.
[39] ـ إبراهيم بن القاسم الرقيق، قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990م، ص 55.
[40]ـ قران كريم، سورة يوسف، الآية111.
[41] ـ التيجاني: (ت. 718هـ/ 1318م)، ينتسب التيجاني صاحب الرحلة المعروفة إلي بيت التيجاني، من أعظم الأسر التونسية وكانوا في الأصل ينتسبون إلي قبيلة (تيجان) المغربية، وأول من قدم منهم إلي تونس هو أبوالقاسم التيجاني، حين أشترك في الجيش الذي سيره عبد المؤمن الموحدي لفتح إفريقية، ثم استقر التيجانيون في تونس، وشاركوا في النهضة العلمية التونسية في عصر الموحدين، ثم عصر بني حفص. للمزيد: يراجع السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص233.
[42] ـ تشير الدراسات الحديثة ـ بالاعتماد على النصوص الموجودة على القوس- إلى أنه تم تدشينه سنة 163م، تكريما للإمبراطور ماركوس أوريليوس ويعتقد أن القوس ظل مستعملا طيلة العصور الوسطى وحتى الاحتلال الإيطالي لليبيا 1912م، فبعد استخدامه في العصر الإسلامي كمسجد للصلاة كما أشار التجاني، فإنه في الفترة السابقة للاستعمار الإيطالي استخدم كمخزن لبيع الفحم، في الفترة المتقدمة على ترسيمه بقليل، إلا أنه بعد الاحتلال الإيطالي امتدت له يد الإصلاحح وتوالت الاكتشافات المهمة بهذا الموقع حتى سنة 1918م، حيث انتهت الحفريات، ورُمم القوس سنة 1937م.يراجع: محمود الصديق أبوحامد وآخرون، المرجع السابق، ص8، وكذلك: نجم الدين غالب الكيب ، ص31، ينظر الصورة رقم 1- والصورة رقم 2.
[43] ـ المدرسة المنتصرية: هي إحدى المدارس القديمة في مدينة طرابلس، بُنيت على يد الفقيه أبي محمد عبدالحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا. للمزيد: يراجع التيجاني، الرحلة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، الجماهيرية الليبية، د.ت، ص251 ـ 252.
[44] ـ التجاني، المصدر نفسه، ص 251-252.
[45] ـ صلاح أحمد البهنسي ، طرابلس الغرب، دراسة في التراث المعماري والفني، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004م، ص101.
[46] ـ التيجاني، المصدر السابق، ص240.

[47] ـ الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، ط4، 2004م، ص55.
[48] ـ مصطفى محمد بازاما، تاريخ ليبيا في عهد الخُلفاء الراشدين، مؤسسة ناصر للثقافة، د.ت، ص134.
[49]ـ إن أول ذكر في المصادر العربية الإسلامية لمدينة طرابلس تسبقه الهمزة (أطرابلس) كان في كتاب عمرو بن العاص الموجه لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، يبلغه بفتح أطرابلس، وقد كتبها بالهمز، ويستأذنه بفتح إفريقية في قوله: " إنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين إفريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل " للمزيد يراجع البلاذري، فتوح البلدان، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1988 م، 223.
[50] ـ مجهول المؤلف، الاستبصار في عجائب الأمصار،دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.
[51]ـ الحميري، المصدر السابق، ص389.
[52] ـ التيجاني، المصدر السابق، ص37.
[53] ـ محمود الصديق أبوحامد، وآخرون، مدينة طرابلس منذ الاستيطان الفينيقي حتى العهد البيزنطي،الإدارة العامة للبحوث الأثرية، والمحفوظات التاريخية، 1978م، ص22.
[54] ـ صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص104.
[55] ـ الطراز الكورنثي: لقد أستخدم الرومان في بناء الأعمدة الطُرز نفسها التي أُستخدمها الإغريقية وهي: (الدورية، الأيونية، والكورنثية)، ثم قاموا بإدخال بعض التعديلات عليها، كما أضافوا طرازين أثنين جديدين، عُرف الأول بالطراز التوسكاني[55]، وهو مستنبط من الفن الأتروسكي، أما الثاني فيسمى المركب، فهو خليط من الطرازين الأيوني والكورنثي معاً، وإن المتأمل في هذه الطُرز يلاحظ اختلافاً ظاهراً في قاعدة العمود وبدنه من حيث القُطر والطول والاختلاف أيضاً في التاج والزخرفة، هذا ويعتبر العمود الكورنثي الأكثر شبهاً بالعمود الأيوني، من حيث قيامه على قاعدة، ومن حيث رشاقة جذعه، إلا أن تاجه كان أشبه ما يكون بسلة أو ناقوس مقلوب يشبه الطبل يزخرف عادةً بصفين أو أكثر من أوراق نبات الأكانثوس، هو أيضاً مقسم إلي قسمين هما: (الأبيكوس، والأخينوس) ويحتوي على صفوف من القنوات التي تزين البدن، بلغ عددها أربعة وعشرون قناة تمتد من أعلى إلي أسفل. للمزيد يراجع: فؤاد حمدي بن طاهر، المعجم المرئي للمصطلحات المعمارية الإغريقية والرومانية معانٍ وشروح ومقترحات، منشورات جهاز إدارة المدن التاريخية، ط1، بنغازي، 2021م، ص ص 53- 90.
[56] ـ محمود الصديق أبوحامد، وآخرون، المرجع السابق، ص29.
[57] ـ صلاح أحمد البهنسي، المرجع السابق،ص 104.
[58] ـ محمود الصديق أبوحامد، وآخرون، المرجع السابق، ص29.
[59] ـ التيجاني، المصدر السابق، ص237.
[60] ـ ابن حوقل: (ت 380هـ) قام برحلة انطلق فيها من بغداد في رمضان عام 331هـ/مايو 1943م[60]، طالبا لدراسة الممالك والبلدان، ورغبة في الارتزاق عن طريق التجارة، وانتهى منها بعدما يقرب من ثلاثين عاما. زار خلالها بلاد الإسلام من الشرق إلى الغرب، كما زار أثناءها مناطق أخرى من أوربا مثل بلاد البلغار ونابلي وباليرمو، وجزءا من الهند، وقد ظهر الاهتمام بالجغرافية لديه مبكرا، ومما حفزه إلى ذلك مقابلته للاصطخري عام 340هـ/951م ولابن حوقل كتاب جغرافي يعرف بكتاب (المسالك والممالك) أو (المفاوز والمهالك) ويشتهر باسم (صورة الأرض)، حصر فيه كتابه اهتمامه على وجه التقريب في وصف (دار الإسلام) خاصة إيران، ولكنه كان يتجاوز في حالات معينة نطاق العالم الإسلامي، فمثلا لا يخلو من بعض القيمة روايته عن هزيمة الروس للبلغار والخزر حوالي عام 358هـ/969م حين كان المؤلف نفسه بجرجان، ويعد ابن حوقل الخبير الأول في شؤون المغرب، حيث ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر، كما أورد معلومات وافية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس ويبين المحاصيل المصدرة إلى المغرب ومصر، كما تقدم المادة التي جمعها

لوحة طريفة لحضارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فهو قد التقى مثلا في سجلماسة بجنوبي مراكش بتجار عراقيين من أهل البصرة والكوفة المقيمين هناك، ما يشير بوضوح إلى اتساع المعاملات التجارية آنذاك. للمزيد يراجع: كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ص 216 - 221، وكذلك السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ص 189 -190.

[61] - ابن حوقل، محمد البغدادي الموصلي، أبو القاسم، صورة الأرض، ج1، دار صادر، بيروت، ط. ليدن، 1938م، ص 66

[62] - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ليدن، 1877م، ص216.

[63] - الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1409 هـ، ص 310.

[64] - المراكشي : (581-647هـ/1185-1250م) هو عبد الواحد بن علي ، مؤرخ ولد بمراكش وتعلم بفاس والأندلس، وأدى فريضة الحج ثم استقر بمصر وكان بها أثناء استيلاء الصليبيين على دمياط (6174هـ/619هـ/1220-1222م)، للمراكشي كتاب يعرف (بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب)، وقد كرسه تاريخ دولة الموحدين مع مقدمة قصيرة في الحوادث السابقة لذلك، وقد أتمه إلى عام 621هـ/1224م، وتحقيقا لرغبة مولاه يعطي المراكشي في القسم الأخير من الكتاب وصفا جغرافيا لدولة الموحدين، غير أنه يسبق ذلك ببعض الألفاظ التي يتضح منها أنه يعتبر هذا الموضوع غير مناسب على الإطلاق لمهنة المؤرخ، ما يعني أنه قد وجدت لدى العرب رغبة صادقة للتفريق بين المادتين التاريخية والجغرافية، وإخضاع كل منهما لمنهج خاص يقوم على أسس عامة. للمزيد يراجع: كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص 375-376.

[65] - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء، وأعيان الكتاب، ط 7، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1978م، ص 490-492.

[66] - أبن سعيد المغربي: (610-685هـ/1214-1286م)، مؤرخ أندلسي، من الشعراء، العلماء بالأدب، ولد بقلعة يحصب، قرب غرناطة، ونشأ واشتهر بغرناطة، وقام برحلة طويلة زار بها مصر والعراق والشام، وتوفي بتونس، وقيل في دمشق، من مؤلفاته : (المشرق في حلي المشرق)، و(المغرب في حلي المغربي) و(الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد) تاريخ بيته وبلده و (ديوان شعره) و(النفحة المسكية في الرحلة المكية) و(عدة المستنجز) رحلة، و(نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب) و(وصف الكون) و(بلاط الأرض) كلاهما في الجغرافية، و(القدح المعلي) وغيرها، للمزيد يراجع: الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 26.

[67] - أبو الحسن علي بن سعيد، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: قرنيط خينيس، تطوان، المغرب، 1958م، ص490 - 492.

[68] - أبن خلدون: (732-808هـ/1332-1406م)، فيلسوف ومؤرخ وعالم بالاجتماع، وبحاثة، أصله من أشبيلية ومولده ومنشأه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، قاده طموحه إلى تقلد بعض المناصب منها كاتب ابن إسحاق سلطان تونس عام 752هـ/1352م، ثم انتقل كاتبا لأبي عنان سلطان فاس 756هـ/1355م، كما تقلد مناصب مختلفة من أهلها كاتب سر السلاطين في غرناطة 764هـ/1362م، ثم انتقل إلى باجاية سنة 766هـ/1364م، وعاد إلى غرناطة سنة 776هـ/1374م، ولم يطل به المقام بها وما لبث أن عاد قافلا إلى تونس، حيث اعتزل السياسة وتفرغ للإنتاج العلمي، وعزل نفسه في قلعة أولاد سلامة لمدة أربع سنوات ألف خلالها مقدمته المشهورة، غادر بعدها تونس متوجها إلى القاهرة عام 784هـ/1382م[68]، وهناك أكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية، ثم زار الأماكن المقدسة في الحجاز وعاد إلى القاهرة، وفيها توفي، وقد اشتهر ابن خلدون بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر...) في سبعة مجلدات أولها (المقدمة) وهي تعد من أصول علم الاجتماع ترجمة هي وأجزاء من الكتاب إلى اللغة الفرنسية، وغيرها من اللغات، وختم العبر بفصل عنوانه (التعريف بابن خلدون) ذكر فيه نسبه وسيرته وما يتصل به من أحداث زمانه، وله كتب مختلفة في الحساب والمنطق والتاريخ. للمزيد يُراجع: الموسوعة العربية، المرجع السابق، باب ابن خلدون، ص 1-2، وكذلك: الزركلي، المرجع السابق، ج3، ص 330.

[69] ـ ابن خلدون،.كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، د.ت،ص 1604.
[70] ـ نجم الدين غالب الكيب ، صبراتة في فلك التاريخ، المنشأة العامة للنشر والإعلان، ط2، طرابلس، الجماهيرية، 1982م، ص ص90،88، وكذلك: رشيد الناظوري، المرشد إلي آثار لبدة، وزارة الإعلام والثقافة، طرابلس، ليبيا، 1967م، ص21.
[71] ـ نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص93.
[72] ـ المرجع نفسه، ص96.
[73] ـ رشيد الناظوري، المرجع السابق، ص 21-22.
[74] ـ نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص104.
[75] ـ في حدود العام 455م أزال الوندال سور المدينة؛ الأمر الذي عرضها لغزوات القبائل الليبية، ناهيك عن زحف الرمال الذي كانت تعيقه الأسوار، فلم يستطع الباقون من سكانها مقاومة الرمال عدا بعض الأزقة القريبة من بيوتهم، وحين قدم البيزنطيون عام 533م وجدوا الجزء الأكبر من المدينة مطموراً تحت الرمال، وحين أعاد الإمبراطور جستنيان بناء السور لم تدخل ضمنه سوى أجزاء قليلة من المدينة. يراجع: رشيد الناظوري، المرجع السابق، ص27.
[76] ـ رشيد الناظوري، المرجع السابق، ص28.
[77] ـ نجم الدين غالب الكيب، ص109-110.
[78] ـ البلاذري، المصدر السابق، ص222.
[79] ـ جون رايت، المرجع السابق، ص72 ـ 73.
[80] ـ ابن خلدون، المصدر السابق، ص428،427.
[81] ـ أبوالفداء، عماد الدين اسماعيل، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، ص127 ـ 128.

تشير الدراسات الحديثة ـ بالاعتماد على النصوص الموجودة على القوس- إلى أنه تم تدشينه سنة 163م، تكريماً للإمبراطور ماركوس أوريليوس ويعتقد أن القوس ظل مستعملا طيلة العصور الوسطى وحتى الاحتلال الإيطالي لليبيا 1912م، فبعد استخدامه في العصر الإسلامي كمسجد للصلاة كما أشار التجاني، فإنه في الفترة السابقة للاستعمار الإيطالي استخدم كمخزن لبيع الفحم، ثم دار لعرض الصور المتحركة في الفترة المتقدمة على ترسيمه بقليل، إلا أنه بعد الاحتلال الإيطالي امتدت له يد الإصلاح2 وتوالت الاكتشافات المهمة بهذا الموقع حتى سنة 1918م، حيث انتهت الحفريات، ورمم القوس سنة 1937م3.

1. محمود الصديق أبو حامد، وآخرون، مدينة طرابلس منذ الاستيطان الفينيقي حتى العهد البيزنطي، الإدارة العامة للبحوث الأثرية والمحفوظات التاريخية، 1978م، ص 8.
2. نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص 31.
3. محمود الصديق أبوحامد، المرجع السابق، ص8

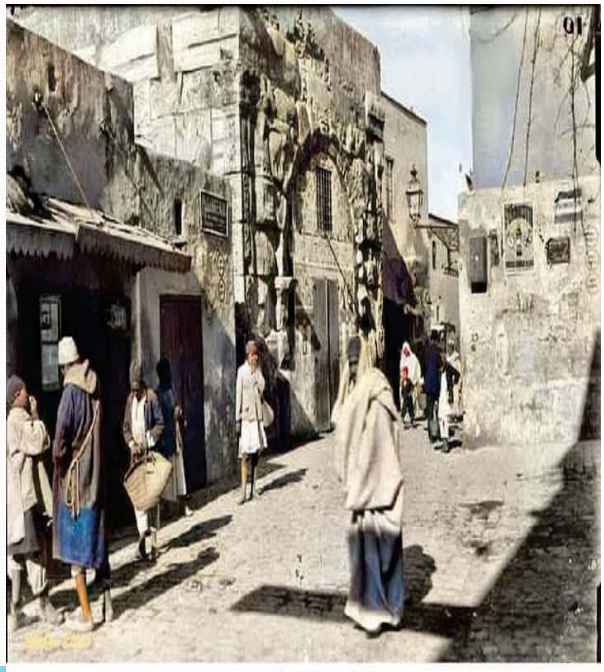

صورة رقم (1)، ينظر الهامش رقم 42

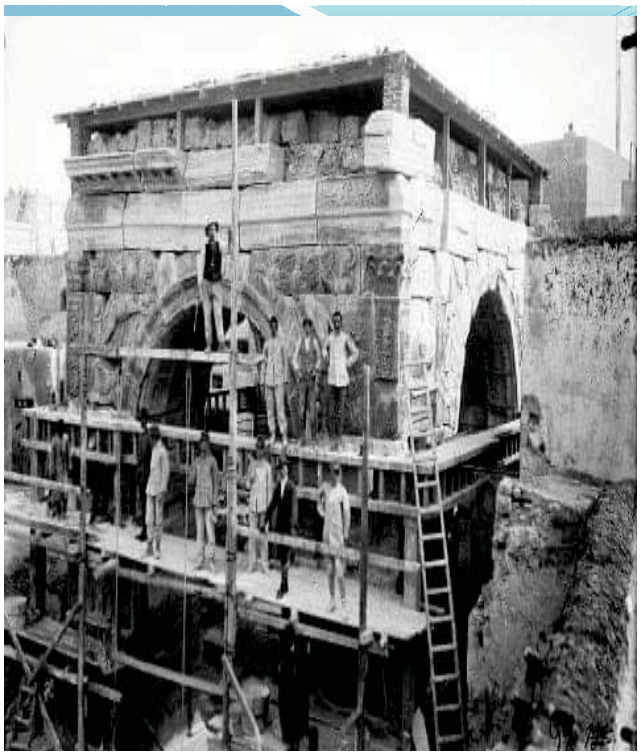

صورة رقم (2)، ينظر الهامش رقم 42